

حَدِيثُ بَاخُوم

١

أخذ القوم يرفعون أيديهم عن الطعام ، وجعلوا كلما تحول واحد منهم عن المائدة ممتلئاً ثقيلاً سعى هادئاً رقيقاً ، لا تكاد قدماء تحملانه ، كأنما أثقله ما ازدرد من الطعام والشراب ، حتى إذا تخطى عتبة الدار اتخذ مجلسه أو ألقى نفسه إلقاء في هذا الميدان الفسيح الذي كان يمتد فيه البصر إلى غير مدى ، والذي كان ينحدر في سر وأناة حتى يبلغ النيل . وما هي إلا ساعة حتى كان القوم جميعاً قد أخذوا أماكنهم أمام الدار ، وبدءوا حديثاً خافتاً بطيئاً متقطعاً أول الأمر ، ولكنه يرتفع ويسرع ويتصل ، ويزداد حظه من الارتفاع والسرعة والاتصال ، كأنما كان ذلك يقدر بما يكون من استقرار الطعام والشراب في أجوافهم شيئاً فشيئاً ، وتوفر معداتهم على الهضم قليلاً قليلاً .

وليس من شك في أن هذا النسيم الليل الذي كان يهب عليهم من الشمال رقيقاً رطباً ، قد أعانهم على هضم ما ازدردوا ، وردّ عليهم شيئاً من النشاط الذي كانوا في حاجة إليه ، ليتصل بهم المجلس شطراً من الليل ، وليأخذوا في أسمارهم كما تعودوا أن يفعلوا كلما دعاهم صديقهم « يوحنا » إلى الطعام .

وكان « يوحنا » أكثر أهل القرية مالا ، وأعظمهم ثراء ، وأوسعهم أرضاً ، يعمل في زراعته الفقراء من شباب القرية الذين لا يملكون أرضاً ، يفرغون لها ، ويقفون بجهودهم عليها . وربما احتاج

فى بعض المواسم والأوقات إلى عدد أكثر من هؤلاء الذين كانوا يجدهم فى قريته ، فيجلب العمال والفلاحين من القرى المجاورة . وقد كان بعضهم يسمع بثروة « يوحنا » وكرمه ورفقه بالعاملين فى أرضه وسخائه عليهم ، فيقصد إلى هذه القرية من بعيد ، ليعمل عند هذا الرجل الذى لم يكن يشبه الكثير من أغنياء الإقليم وأصحاب الثروة فيه . وكان « يوحنا » قد عود نفسه البر بأهل قريته ، والتوسعة عليهم بين حين وحين ، لا يعرف أن أحداً منهم قد مسه الضرر ، أو اشتدت عليه الحال ، إلا أعانه وأغاثة وأنجده ، يكرم ذلك ما وسعه الكتمان ! كأنما كان يستحى من أن يعرف الناس عنه بره وكرمه ، ولكن الناس كانوا يعلمون منه ذلك ويتسامعون به . وكان صنائعه يرون من شكر الصنيعة ومعرفة الجميل أن يذيعوا إحسانه إليهم ، وأياديه فيهم . وكان « يوحنا » على ذلك لا يكتفى بهذا البر المكتوم يبذله لأهل قريته كلما احتاجوا إليه ، وإنما كان يدعوهم من حين إلى حين إلى طعام عام يقدمه إليهم فى أيام كانوا يرونها أعياداً ، وكانوا يستجيون لدعوته ولا يتخلفون عنها ، سواء فى ذلك الميسور والمقتصر عليه فى الرزق ، يرون ذلك نعمة منه عليهم ، وحقاً له فى أعناقهم . وكانوا إذا أخذوا حظهم من الطعام والشراب فرغوا للأحاديث والأسمار فقصوا فيها شطراً غير قصير من الليل ، ثم تفرقوا موفورين محبورين ، تحفق قلوبهم بالحب له ، وتنطلق ألسنتهم بالثناء عليه .

وكانوا فى هذه المرة فى مساء يوم من أيام الآحاد ، لم يجهدهم العمل ، ولم يضمنهم الكد ، وإنما قضوا يومهم فارغين ، قد خلصوا

لحياتهم الخاصة ، وانظروا هذه الوليمة التي كانوا يترقبونها منذ أيام ،
وألموا بكنيستهم المتواضعة فأدوا صلاتهم ، واستمعوا لوعظ القسيس .
وكان قسيسهم شيخاً مهالكاً قد تقدمت به السن ، وثقلت عليه
الحياة ، وأدرك عقله شيء يسير من ضعف كان ربما دفعه إلى بعض
التخليط ، وأغراه إلى أن يتحدث إليهم بغير الصواب . وكانوا على
ذلك يحبونه ويكرمونه ، ويرعون له طول عهده بهم ، واتصال إقامته
فيهم ، وكثرة ما صنع بهم من معروف ، وما أحسن الوساطة بينهم
وبين الله . فكانوا إذا سمعوا منه بعض التخليط ابتسموا مشفقين
عليه رفيقين به . وربما قسا عليه شبابهم من حين إلى حين ، فأظهر
شيئاً من سخرية ، وأعلن شيئاً من اعتراض . وكان القسيس يلقي من
أهل القرية حباً بحب ، ووفاء بوفاء . وما له لا يفعل وشيوخ القرية
إخوته الصغار ، وشباب القرية أبناءه الذين شهد مولدهم ، وقدم
زواجهم ، وتلقى أبناءهم على اختلاف أسنانهم ، منهم من لا يزال
في المهد ، ومنهم من جعل يدرج ! ومنهم من أخذ يختلف إلى
الحقول . ولم تكن قسوة الشباب عليه تؤذيه أو تبلغ نفسه الطيبة وقلبه
الحليم ، وإنما كان يلقاها بكثير من العفو والإسماح . وربما مكر
بالشباب مكرراً فدفعهم إلى أن يعبثوا به ويقسوا عليه بعض الشيء ؛
يرى في ذلك دعاية تسره وتسر من حوله من أبنائه وأحبائه .

فلما أخذ القوم في حديثهم تلك الليلة بعد العشاء انبرى شاب
من شباب القرية كان معروفاً بالدعاية وخفة الروح ، فقال للقسيس
في هزل يشبه الجلد : « لقد روعتنا يا أبانا منذ اليوم بما قصصت

علينا من حديث الشيطان وما عرضت علينا من صورهِ الغريبة
البشعة ! فما قدّرتُ قط أن للشيطان هاتين الأذنين الطويلتين ،
وهذين القرنين المحددين ، وهذه الأرجل الثمان التي قسمت بين
ظهره وبطنه ، والتي تتيح له أن يسعى مرة ووجهه إلى الأرض وأن
يسعى مرة أخرى ووجهه إلى السماء .

قال فتى آخر من فتیان القرية : « فقد كان ينبغي أن تكون
له أرجل ثمان أخرى : أربع منها عن يمين ، وأربع منها عن شمال !
ليستطيع أن يسعى على أى جنبه شاء ، كما يستطيع أن يسعى على
بطنه حيناً ، وعلى ظهره حيناً آخر » .

قال فتى ثالث : « وقد ينبغي أن يتاح للشيطان أن يسعى على
قرنيه مرة وعلى ذنبه مرة أخرى » .

قال فتى رابع : « فأنتم تريدون أن يكون الشيطان كله أرجلا
إذاً ! فهلا تركّم من جسمه موضعاً للجناحين ! فقد ينبغي أن يكون
له أجنحة يطير بها في الهواء ، لينقل الشر بها في أقصر وقت وأيسره من
قطر من أقطار الأرض إلى قطر ، ومن جيل من أجيال الناس إلى جيل » .
وتضحك القوم جميعاً ، فأغرقوا في الضحك ، ولم يكن قسيسهم
الشيخ أقاهم ضحكاً . ولكن الفتى الأول اتجه إلى أبيه القسيس
الشيخ وقال في صوت غليظ وضحك عريض : « أوأيت الشيطان
قط يا أبانا ؟ وعلى أى شكل من هذه الأشكال رأيته ؟ »

قال القسيس الشيخ في صوت هادئ نحيف يبطئ به الكبر ،
ويكاد يهدّه الضحك هدّاً : « لم أر الشيطان قط يا بني ، وما ينبغي

لمثل أن يراه ، وأعوذ بالله لكم من أن نراه . وما حدثتكم من أمره إلا بما قرأت في الكتب ، وسمعت من الأساتذة والمعلمين ، وسمعت من أحاديث الناس أيضاً . ومهما نصوّر من بشاعة الشيطان وقبح منظره فلن نبلغ منهما شيئاً ! فهو أبشع من كل ما نظن ، وأقبح من كل ما نصوّر ، لا في شكله وخلقه فحسب ، بل في رأيه وعمله أيضاً ، وفي مشورته وما يوسوس به إلى الناس بنوع خاص .

وهنا تكلم « باخوم » فخفتت الأصوات ، وأنصت الناس . وكان « باخوم » شيخاً من شيوخ القرية ، قد عرف بطول الصمت خارج الكنيسة ، وكثرة الصلاة إذا كان فيها ، كما عُرِف بالوقار والأناة إذا تحرك أو تكلم ، وكما عرف بهذه الهيبة التي كانت تقيص على وجهه ، وهذه المحبة التي كانت تجذب إليه الناس .

وكان « باخوم » رجلاً قد طوّف في الأرض أول شبابه فأكثر التطويف ، ولم يكن يلمّ بقريته إلا ليمكث فيها العام أو بعض العام ، ثم يرتحل عنها فيغيب عنها الأشهر حيناً ، والعام حيناً آخر ، وربما امتدت غيبته فبلغت العامين ، ولكنه كان ينتهي دائماً بالعودة إلى قريته والإقامة فيها حيناً . . . وكان لا يعود إلا ومعه فضل من مال يبرّه به خاصته وذوى قرياه ، ويحسن به إلى الفقراء والبائسين ، وشيء من الطرف النادرة يتحف به الأغنياء وأصحاب اليسار .

وكان قد نشأ عاملاً يرافق البنائين حتى تعلم صناعتهم ، وأحسن من فنونهم ما يحسن أهل القرى . وكان ذلك لم يكفه ولم يغنه ، فارتحل إلى المدن فوجد فنه شيئاً ، ثم أخذ يتنقل بفنه من مدينة إلى مدينة ،

ومن إقليم إلى إقليم حتى جاب أرض مصر كلها . وكان كلما أحسن من فنه شيئاً طمع في أن يضيف إحساناً إلى إحسان ، ويرقى بفنه من طور إلى طور ، حتى تسامع الناس به ، ودعاه الأغنياء وأصحاب الثراء ، في إقليمه وفي غير إقليمه ! ليشرّف على ما كانوا يريدون أن يشيدوا من الدور والقصور . وكأنه قد عرف ما كان عند المصريين من فن البناء ، وحذق من ذلك ما كانوا يحذقون . ثم لم يكنه ما عرف ، ولم يرضه ما أتقن ، فأبعد في الرحلة ، وتجاوز مصر إلى غيرها من البلاد المجاورة ، ولكنه استبق عادته وحفظ لقريته عهداً ، فكان يبعد في الرحلة ويطيل الغيبة ، حتى يستئس أهل القرية من عودته ، ويظنوا أنه قد هلك في بعض الطريق ، أو عدت إليه عاديّات الدهر في بعض أقطار الأرض . ولكنهم يرونه ذات يوم وقد أقبل عليهم مع الصباح أو مع المساء ، هادئ النفس دائماً ، وقوراً في حركاته وكلامه دائماً ، طويل الصمت خارج الكنيسة ، كثير الصلاة إذا كان فيها ، يحمل فضلاً من مال يبرّ به الفقراء والبائسين ، وشيئاً من الطرف يتحف به الأغنياء والموسرين . وقد كان أول أمره يحب الفن ويسكف بالعمارة والبناء ، ولكن إلحاحه في السفر وتجوّبه للآفاق قد أضافا إلى هذا الحب الفني شيئاً آخر ، هو حب الرحلة في نفسها والكلف بزيارة البلاد المختلفة ، والإلمام بالأجيال المتباينة من الناس . فكان يرتحل للبناء أول الأمر ، ثم أصبح يرتحل لأشياء إلا لأن نفسه لا تستطيع أن تسلو عن الرحيل . وكان في أول أمره ينتهز الفرص ويلتمس العلل والمعاذير لما كان يزعم من رحلة ، أو يعترزم من سفر ؛

فكان يصحب القوافل إلى هذا الوجه أو ذاك من وجوه الأرض .
ولكنه انتهى آخر الأمر إلى أن يستقل بتدبير أمره ويهيئ أسفاره ،
لا يلتمس لذلك علة ، ولا يتتحرل له معذرة ، ولا يصحب هذه
القافلة أو تلك ، وإنما يعود من رحلة إلى بلد ، فلا يكاد يستقر في
قريته حتى ينبيئ الناس بأنه مرتحل إلى بلد آخر ، يسميه لهم تسمية
العالم به ، الملم من أمره بما لا يعرفون .

وقد عاد إليهم ذات مرة من بعض أسفاره في بلاد الروم .
فلما أقام فيهم شهراً أو بعض شهر أنبأهم بأنه يريد أن يركب هذا
البحر الذي لا يركبه الناس إلا قليلاً ، وأن يرى ما ينبث على سواحه
من المدن ، ومن يعيش حوله من أجيال الناس . وقد سمع من أمر
هذه الأجيال وتلك المدن أعاجيب ، منها ما يقبله العقل ، ومنها
ما لا يستطيع الإنسان له تصديقاً . وهو يعلم على كل حال أن شرق
هذا البحر ، وغير بعيد من ساحله ، تقوم مدينة قديمة ، يسكنها قوم
صالحون يعرفون المسيح ، ويؤمنون به ، ويخلصون لدينه . وقد امتحنوا
في دينهم بأعظم الشر وأشنع النكر ، فصبروا على المحنة ، وثبتوا للخطب ،
واصطلوا النار التي حرقهم بها اليهود تحريقاً . وهو يعلم أن قيصر
قد رقى لهؤلاء الناس ، وغضب لما أصابهم من الشر ، فأنجدهم
وأغاثهم وثأر لهم من اليهود . وهو يريد أن يزور هذه المدينة ، ويرى
هؤلاء الناس الصالحين الذين عذبوا في الدين ، ويودّ لو استطاع
أن يقيم لهم كنيسة ، ويترك في مدينتهم تلك أثراً يتقرب به إلى الله .
وكان أهل القرية يسمعون حديثه ، فمنهم من يزين له الماضي

فيما عزم عليه ، ومنهم من يصدّه عن ذلك ويرغبه في لين العيش واستقرار الحياة . ولكنه كان يسمع لأولئك وهؤلاء ، ولا يرد على أولئك ولا على هؤلاء رجع الحديث ، وإنما كان يمضى في تدبير أمره كما قدر هو ، أو كما قدر الله له ، لا كما أرادته الناس عليه . وأصبح القوم ذات يوم فإذا « باخوم » قد تهيأ للرحلة كما تعود أن يفعل ، وإذا هو يفارقهم ، فتصل غيبته وتتصل ، وتمضى الأعوام دون أن يسمعو من أمره شيئاً ، حتى يستيئسوا من عودته ، ثم تمضى الأعوام وقد تسلاوا عنه وكادوا ينسونه ، وجعلوا لا يتحدثون عنه إلا قليلاً ، وجعلوا إذا ذكروه رقت أحاديثهم عنه ، وحسن ذكركم له ، وكثر إشفاقهم عليه ، كدأب الناس حين يذكرون قعيداً كريماً كانوا يحبونه ويؤثرونه ، ثم حالت بينهم وبينه الخطوب ، فأخذوا يتعزّون عنه ويذكرونه ذكراً جميلاً .

ثم يتسامع أهل القرية ذات يوم بأن « باخوم » قد عاد إليهم بعد أن غاب عنهم عشر سنين ، فينكرون أول الأمر ، ثم يعرفون بعد أن يروا صاحبهم كعهدهم به ، إلا أن السن قد تقدّمت به ، وظهر أثر ذلك في هذا الشيب الذى جلل رأسه ، وفى هذا الهدوء الذى عظم حظه منه ، وفى هذا الصمت الذى اشتد إمعانه فيه ، وفى شيء آخر جديد لم يكونوا يتظنون منه ، وهو إعلانة إليهم أنه لن يرحل عن قريته بعد هذه المرة ! بل سيظل بينهم يشاركهم في الحياة حتى يقضى الله فيه بما يشاء .

وكان أهل القرية يكلفون بحديث « باخوم » ويشغفون بالاستماع له . وليس من شك في أن أولى الجلد منهم كانوا ينتظرون أن تنقضى هذه الدعابة بين الفتیان وأبيهم القسيس الشيخ ليطلبوا إلى « باخوم » أن يطرّفهم بشيء من أنباء رحلته الطويلة الأخيرة ! فإنه لم يقصّ عليهم منها شيئاً .

ولم يطمئن أهل القرية قط إلى محدث أو قاصّ كما اطمأنوا إلى هذا الرحالة من أبناء قريتهم ! فقد كانوا يعرفون فيه الصدق والأمانة والتواضع والاعتدال ، ولم يعرفوا قط أنه تزبد أو تكثر أو اعتزّ بما رأى — وما كان أكثر ما رأى ! — وبما شهد ، وما كان أكثر ما شهد ! فلما سمع أهل القرية صوته تدانوا منه ، وأصغوا إليه ، وكفّ الفتیان عن دعابته ، وردّوا ضحكهم إلى صدورهم ولم يتموه .

وكان « باخوم » يتكلم بصوت هادئ ، غليظ بعض الشيء ، عميق أشد العمق ، كأنه يأتي من أقصى ضميره ، فكانت الكلمات التي يحملها هذا الصوت الرزين العميق إلى آذانهم لا تكاد تبلغ آذان القوم حتى تنفذ منها مسرعة إلى قلوبهم ، وتستقر فيها وتملؤها عجباً وإعجاباً .

قال باخوم : « أما أنا فقد رأيت الشيطان ، ما أشك في ذلك ولا أرتاب . ورأيت في قصة غريبة وقعت لي في رحلتي هذه الأخيرة

منذ عامين » . ثم سكت قليلا . ثم استأنف حديثه قائلا : « نعم ! منذ عامين ، وقد امتلأت بها نفسى حتى كأنها لم تقع إلا بالأمس ، وقد اتصل بها قلبي فطمع في تجدها أشد الطمع ، ورجا تكررها أشد الرجاء ، حتى كأنها ستكون غداً . وهى آخر ما رأيت من أسفارى من عجيب الأمر . وما أرى إلا أنها آخر ما سارى فى حياتى من عجيب الأمر ، إلا أن تمتد بى الأيام إلى أكثر مما أقدر وما يقدر أمثالى لأنفسهم من السن .

« وما أشد ما أتمنى ذلك ! وما أشد ما أحرص عليه ! لا لأنى أحب الحياة أكثر مما يحبها الناس ، أو أرغب فى البقاء أكثر مما يرغب فيه الناس ، بل لأنى موقن بأن لهذه القصة شأنًا ، وبأنها قد أنبأت عن شيء سيكون . وما أشد شوقى إلى أن أشهد تحقيق هذا النبأ ، وظهور هذا الحدث العظيم ! » .

وتصور أيها القارئ أثر هذه الحمل التى كانت تصدر عن « باخوم » ملتهبة ، فتحرق قلوب المستمعين له تحريقاً . تصور أثر هذه الحمل فى تشويق أهل القرية إلى هذه القصة التى سيطرفهم بها هذا الشيخ . وإنهم ليريدون أن يتعجلوه ، ولكنه مطرق مغرق فى الصمت ، وقد اتصلت أبصارهم به ، وتعلقت قلوبهم بشفتيه . ولبث هو على صمته حيناً ، وقد سكن الليل وسكت النسيم ، كأنما تريد الأرض والسماء ، وهذه النجوم المتألقة ، وهذا النيل الذى يسعى هادئاً من بعيد ، أن تسمع له وتستمتع بحديثه ، كما يستمتع له الفلاحون فى قرية من قرى الصعيد .

قال باخوم بعد ساعة : « كان ذلك منذ عامين حين انتهت
 في الأسفار إلى مكة ! تلك القرية التي تسمعون ذكرها أحياناً حين
 تفقد علينا قوافل قريش تحمل إلى مصر تجارة اليمن والهند . فقد
 أملت بها ، وإن لي من أهلها لبعض الصديق ، وكنت أريد أن
 أقضي فيها شهراً ، ثم أرحل مع قافلهم إلى اليمن لأبأغ تلك المدينة
 الصالحة التي يسكنها قوم صالحون قد فتنوا في المسيح ، فصبروا على
 الفتنه ، وكنت أريد أن أقيم لهم كنيسة وأترك فيها أثراً باقياً .

« فما أقضي في مكة شهراً وبعض شهر حتى يتوصل إلى بعض
 الصديق من قريش في أن أبني له داراً ، فلا أمتنع عليه ، وإنما
 أجيئه إلى ما أراد ، وفاءً ببعض ما بيننا من المودة ، وأداءً لبعض
 ما لهؤلاء الناس على من حق . وقد صحبتهم في سفر شاق بعيد ،
 فحمرني وحاطوني ورفقوا بي ووفوا لي بدمتهم ، وأكلوا لي صادقين
 أنهم سيبلغوني نجران إذا ارتحلوا إلى اليمن ، وسيردوني إلى مأمي
 إذا عادوا إلى بلاد الروم . فلم يكن بدّ إذاً من أن أستجيب لصديقي ،
 فأقيم له داره التي أراد أن يبنها . وما هو إلا أن يكون التنافس بين
 القوم ! فهؤلاء نفر من سرآتهم وعظماهم يتوسلون إلى في مثل
 ما توسل إلى ذلك الصديق فيه . وكلهم يعظم لي الأجر ، ويهني
 إلى ما استطاع من الخير . وإني لفي ذلك أجيب منهم من أستطيع
 إجابته راضياً مسروراً بإرضاء هؤلاء القوم الكرام ، وبمعاودة المهنة
 بعد أن طال إهمالي لها وإعراضى عنها ، وإذا خاطر يخطر للملأ
 من قريش ذات ليلة وهم يسمرون ، فيفكرون فيه ثم يفكرون ،

ثم يستأنون به ، ثم يعودون إليه ، ثم يؤخرونه ، ثم يستأنفون النظر فيه ، ثم يُفَضُّون إلىّ به على أنه شيء يريدونه وتتمناه قلوبهم ، ولكنهم لا يجرون عليه . يُشَفِّقُونَ أن يكون في الإقدام عليه ما يغضب آهتهم ، ويجر عليهم ما يكرهون . رأوا بيتهم ذاك الذي يقدر سونه ويعبدون ربهم فيه قد طال عليه العهد ، وبعدت به الأيام ، وظهر عليه الوهن ، وتعرض لأخطار السيل ، واجترأ عليه اللصوص فسرقوا بعض ما فيه من متاع ، فتساءلوا : ألا يكون من الخير أن يهدموا بناءه هذا القديم ، ويقيموا لربهم بيتاً جديداً فخماً متيناً ، يلائم مكانته في قلوبهم ، ويلائم ثروتهم هذه التي تزداد من يوم إلى يوم ، ويلائم هذه الدور التي أخذوا يقيمونها لأنفسهم فخمة متينة ، قد يُسرت لهم فيها أسباب الترف والنعيم ؟ ولكنهم يفكرون ولا يعزمون ، يخشون ألا يرضى ربهم عما لا بدّ لهم منه من هدم البيت إن أرادوا له تجديداً . وكان يزيد خوفهم وإشفاقهم ويملاً قلوبهم فزعاً وهلعاً كلما هموا بالإقدام أن حية كانت تظهر كل يوم ، فتسعى على جدران البيت صاعدة هابطة دائرة من حوله ، وكان منظرها بشعاً مخيفاً ، وكانت إذا دنا منها دان اتخذت شكلاً رهيباً ، لا يراه من يدنو منها حتى يرتد عنها مذعوراً . فكانوا يخشون أن تكون هذه الحية حارساً لهذا البناء ، وكانوا يقدرّون أنهم إن أتموا رأيهم وأنفذوه لم يدنو من البيت ليأخذوا في الهدم حتى تردّهم عنه مدحورين . ولأنهم لقي أنديتهم حول البيت ذات يوم وإذا الحية قد خرجت من مخبئها ، وجعلت تزحف كدأبها ، وجعلوا هم ينظرون إليها مروّعين ،

وإذا عقابٌ تهوى من السماء فتأخذ الحية من ذنبها ، ثم ترتفع بها في السماء وهم ينظرون ويعجبون ، وقد غابت عنهم العقاب . فما يشكون في أن ربهم قد أذن لهم في أن ينفذوا ما عزموا عليه . وقد أحسوا بعد هذا الحادث شجاعة وإقداماً ، وجعلوا يديرون أمرهم بينهم ، ويدبرون ما لا بدّ من تدبيره لبناء هذا البيت .

« ولأنهم لفي ذلك وإذا الأنباء تصل إليهم ذات صباح بأن سفينة من سفن الروم قد طغى عليها البحر ، وعبث بها الموج ، وقصفت بها الريح ثم دفعتها إلى الساحل القريب . فيسرعون إلى البحر ، وأسرع معهم ، ويرون السفينة وقد عطبت ، واضطر أهلها من الروم والمصريين إلى أشد الخوف وأعظم الهلع ؛ لأنهم دفعوا إلى غير مأمن ، ووقعوا إلى أرض ليس لهم فيها جأر . ولكن قريشاً يلقون أصحاب السفينة أحسن لقاء ، ويؤمنونهم على أنفسهم وأموالهم ، ولا يرضون حتى يشتروا منهم هذه السفينة التي أدركها العطب ، ويقولون لى : ” فإننا نستطيع أن نتخذ من خشب هذه السفينة لبيت ربنا سقفاً “ .

ولم يرتابوا بعد ذلك في أن ربهم قد أذن لهم بهدم البيت وتجديده . ألم يرسل العقاب إلى تلك الحية فتخطفها ! ألم يرسل إليهم هذه السفينة ليتخذوا منها للبيت سقفاً ! ألم يرسلنى أنا إليهم لأبنى لهم هذا البيت كما نقيم البناء في مدن الروم !

« وكذلك تمت كلمتهم على إنفاذ ما دبروا . ولم أتردد أنا في أن أكون من بناء البيت عند ما يحبون . وكنت أنظر إليهم وإلى ما كانوا يرون ويقدرّون في شىء من العطف عليهم والابتسام لهم ؛ فهم

أصحاب سذاجة لم يألفوا من الحضارة ما ألفنا ، ولم يبلوا من خطوب الأيام ما بلونا . فأيسر شيء يدفعهم إلى التفاؤل ، وأيسر شيء يردّهم إلى التشاؤم ، وأيسر شيء يدعوهم إلى الإقدام ، وأيسر شيء يضطرهم إلى الإحجام . ولكنى لم ألبث أن أحسست ما يحسون من روع ، وشاركتهم فيما كان يملك قلوبهم من تردد واضطراب . حضرتهم ذات يوم وقد أطافوا ببيتهم ، وجعل بعضهم يؤكد لبعض تقادم العهد به ، وإلحاح الزمان عليه ، وحاجته إلى التجديد ، ويسعى شيخ من شيوخهم حتى يمسّ حجراً من أحجار البيت ناتئاً بعض الشيء ، فيجذبه بيديه فينجذب ، وقد بعد الشيخ بهذا الحجر عن البيت شيئاً وهو يحمله في يده . ولكن ماذا نرى ؟ نرى هذا الحجر يفصل عن يد الشيخ ، ويمضى وحده في الهواء حتى يرتد إلى مكانه من البيت كأحسن ما يمكن أن يستقرّ في موضعه . ولست أخفى عليكم أنى لم أكن أقل القوم ارتياحاً واضطراباً حين رأيت هذا المنظر البديع ، بل ما أشك في أنى كنت أشدهم ارتياحاً واضطراباً ، وأعظمهم حيرة . وأعجزهم عن الفهم والتأويل . ذلك أن هذا الحدث قد روعهم شيئاً ، ولكنه لم يذهب بصوابهم ، ولم يخرجهم عن أطوارهم . وما أسرع ما فهموا ، وما أحسن ما أولوا ! فقد قال قائلهم : « يا معشر قريش أقدموا على أمركم ، ولكن احذروا أن تنفقوا في هذا البناء مالا حراماً ، لا تدخلوا فيه من كسبكم إلا طيباً . لا تدخلوا فيه مهر بغى ، ولا بيع رباً ، ولا مظلمة أحد من الناس . » .

» ثم غدوا إلى البيت يريدون هدمه ، وقد صحموا على ذلك ،

ولكنهم على تصميمهم لا يجرؤن ، فينادون شيخاً منهم فيرقى إلى البيت ، ويبدأ في الهدم وهو يقول في لهجة ساذجة كان لها في نفسى أبلغ الأثر وأبعده : ” اللهم لا تُزعِجْ ، إنما نريد الخير ” . وكان القوم ينظرون إليه معجبين به ، مشفقين عليه من إقدامه دون أن يشاركوه فيما أخذ فيه ، وإنما أجمعوا أمرهم بينهم أن ينتظروا ليلتهم حتى إذا أصبحوا رأوا ! فإن كان قد نزل بالشيخ مكروه أو ألم به خطب ، علموا أن ربهم غاضب ، فأصلحوا ما هدم الشيخ وتركوا البيت على حاله ، وإن غدا عليهم سالماً موفوراً علموا أن ربهم راض ، فقصوا في الهدم وأقاموا البناء .

» وأصبح الشيخ سليماً معافى ، فغدا على عمله وغدوا معه ، حتى هدموا البيت . ثم جعلوا يجمعون الأحجار يسعون في جمعها بأنفسهم لا يستأجرون لذلك أحداً ، ولا يكلون ذلك إلى رقيق ، يرون النهوض بذلك حقاً عابهم وشرفاً يبقى لهم في أعقابهم . وأخذت أنا أبني لهم البيت أقيمه على أسسه القديمة التي لم يمسهوا .

» ولهم في هذا البيت حجر يعظمونه ويكرمونه ، ويرونه هبة لهم من ربهم . فلما بلغ البناء إلى حيث يجب أن يوضع هذا الحجر اختلف القوم بينهم : أيهم يضعه موضعه ! فكلهم ابتغى لنفسه هذه المأثرة ، وكلهم حرص عليها أشد الحرص ! وإذا اختلفا فهم يستحيل إلى خصومة ، وإذا خصومتهم تبلغ من الشر إلى أقصاه ، وإذا هم يتلاحون ويتناذرون ، ويؤذن بعضهم بعضاً بالحرب ، وقد وقف البناء ، وفسد الأمر بين القوم فساداً عظيماً . وأقاموا على ذلك أياماً

وليلى ، وتحالف بعضهم على الشر ، فجاءوا بجفنة قد ملئوها بالدم وغمسوا فيها أيديهم وهم يقسمون . ليستأثرون بهذا الشرف أو ليوتن من دونه . ثم يجتمع الملائم منهم صباح يوم فيتناهون ويتناصحون ، ثم يشير عليهم شيخ منهم بأن يحكموا في هذه الخصومة أول داخل عليهم من باب من أبواب المسجد ، يسمونه باب بنى شيبه . فلا يلبثون أن يدخل عليهم من الباب رجل شاب لم يروا أجمل منه طلعة ، ولا أعظم منه هبة ، ولا أحسن منه سيرة في قومه . سمعت من أنبائه الشئ الكثير ، ولكنى استيقنت أنه رجل عظيم الخطر حين رأيتهم ينظرون إلى مقدمه مبتهجين ويصيحون : ” هذا الأمين ، قد رضينا . هذا محمد ، قد سلمنا “ . ثم يعرضون عليه الخصومة . فما رأيت وقاراً كوقاره ، وما رأيت أناة كآناته ، وما رأيت هدوءاً كهدهؤه نفسه ، وما رأيت رجلاً أرفق منه بقومه ، وأعطف منه عليهم ، وآثر منه لهم بالخير . وانظروا إلى قضائه فيهم ، فسترون كما أرى أنه لم ينتج عن تفكير إنسان ، وإنما كان إلهاماً من الله .

” نزع الأمين رداءه فألقاه على الأرض ، ثم وضع الحجر في وسطه ، ثم قال لقومه : ” لينتدب من كل ربع من أرباع قريش رجل “ . فلما اجتمع أربعة نفر يمثلون قومه كلهم ، قال : ” ليأخذ كل واحد منكم بزواية من زوايا الرداء “ ، ففعلوا واشتركت قريش كلها في رفع الحجر ، وتقسمت قريش كلها هذا الشرف العظيم قسمة سواء عدلاً ، حتى إذا انتهوا إلى البناء آثره ربه بخلاصة هذا الشرف وخير ما في هذه المكرمة ، فيأخذ الحجر بيده ، ويضعه

فى موضعه ، والقوم راضون فرحون ، قد اطمأنت قلوبهم إلى هذا العدل ، واستبشروا بما كف عنهم من الشر ، وبما عصم لهم من الأنفس وحقق لهم من الدماء . وهنا استيقنت أنى رأيت رجلاً هو أحب خلق الله إلى الله ، وأكرمهم عليه . ولكنى لم ألبث أن رأيت شخصاً يجب أن يكون أبغض خلق الله إلى الله ، وشرهم عنده مكانة . كان رجلاً شيخاً حسن الطلعة ، جميل المنظر ، عليه وقار ، وله سمّة ، ولم أكن قد رأيته فى القوم قط ، وما كان شكاء ملاماً لأشكالهم ، ولا زيه مشاكلاً لأزيائهم . ولكنى رأيته فجأة لا أدرى من أين جاء ، أنجم من الأرض أم هبط من السماء .

« أقبل هذا الشيخ النجدى يناول الأمين حجراً يثبت به الركن الأسود فى موضعه ، فيقبل رجل من عمومة الأمين ، فيأبى على هذا النجدى وينحيه ويدفع إلى الأمين الحجر الذى يشد به البناء . هنالك غضب الشيخ النجدى ، فقال له الأمين : ” إنه ليس بينى معنا فى البيت إلا من كان منا “ . فجعل النجدى يقول : ” يا عجباً لقوم أهل شرف وعقول ، وسن وأموال ، عمدوا إلى أصغرهم سنّاً ، وأقلهم مالاً ، فرأسوه عليهم فى مكرمتهم وحرزهم ، كأنهم خدم له . أما والله ليفوتنهم سبقاً ، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً “ .

« وتسمع قريش حديث النجدى فتسخط عليه وتثور به ، وتريد أن تلحق به الأذى ، وأكنا ننظر فلا نجد أحداً ، ونبحث فما نعرف إلى أين ذهب ، كما لم نعرف من أين جاء .

« ويقول قائلنا حين استيأسنا منه : ” هذا والله إبليس ، أراد أن

تكون له في بيت ربنا يد ، فرد عن ذلك مدحوراً « .
ثم سكت « باخوم » ، وأطرق فأطال الإطراق ، كأنه يستعيد
في نفسه هذه القصة التي سحر بها قلوب سامعيه وألبابهم . ولكن
القسيس الشيخ يسأل « باخوم » في صوته الهادئ المحطم : « ونجرانُ
يا بنى أذهبتَ إليها ؟ أقمتَ فيها الكنيسة التي كنت تريد أن تقيمها ؟ » .
قام باخوم : « لا يا أبانا ، قنعت ببناء هذا البيت لهذا الحى
من قریش . وما أدري لماذا استيقنتُ نفسى منذ ذلك اليوم بأن
سيكون لهذا البيت ولذا الأمين شأن » .
قال القسيس : « فإنك تسمى هذا الأمين محمداً ؟ » .
قال باخوم : « نعم ! يسميه قومه محمداً ، ويسمونه أحمد ،
ويكنونه أبا القاسم ، ويتحدثون عنه بالأعاجيب » .
قال القسيس في شيء من الحيرة والذهول : « أحمد ! أحمد !!
أليس يمكن أن يكون هذا النبي الذى بشر به المسيح ! » .
وتفرق القوم من ليلتهم ، وإن في قلب كل واحد منهم لأثراً
قوياً باقياً لهذا الحديث .

قال محدثي : والعجب أن أكثر المصريين يجهلون أن لهم في بناء
الكعبة يداً ، وأنهم قد اشتركوا فيه ، واشتركوا فيه مع الأمين الذى
أصبح بعدُ سراجاً منيراً ، أخرج الله به الناس من الظلمة إلى النور .